الرسالة التي وجهتها إلى الشيوعيين اللبنانيين واطلع عليها جورج البطل ووضع توقيعه عليها ونشرناها في جريدة النهار – 2003:

إلى الشيوعيين اللبنانيين

ينعقد المؤتمر التاسع للحزب الشيوعي اللبناني وسط أزمة داخلية لم يعرف مثيلًا لها وتهدّد مصيره. وهي أزمة فكرية وسياسية وتنظيمية تتصل بصورة الحزب في الحقبة المقبلة. وقد رأينا، نحن الموقعين عليها كريم مروّه وجورج البطل أن نوجّهها إلى الشيوعيين في محاولة لتجاوز الأزمة الراهنة وتأهيل الحزب لدور فاعل ومستمر في حياة البلاد. وقد نشرنا الرسالة على صفحات جريدة النهار لكي تصل إلى الشيوعيين من دون وسائط، ولكي يطّلع عليها الشعب اللبناني الذي من أجله ودفاعًا عن مصالحه وجد الحزب الشيوعي اللبناني لدى تأسيسه.

نتوجَّه برسالتنا هذه إلى الشيوعيين اللبنانيين من كل الأجيال، في الوطن وفي بلدان الاغتراب في مواقعهم كلها داخل التنظيم أو على تخومه أو على هامشه. ولا نستثني الأعداد الكبيرة من الشيوعيين الذين انكفأوا عن النشاط داخل الأطر الحزبية وانتقلوا إلى منطقة الانتظار، إما بفعل القلق والاضطراب اللذين أحدثتهما الحرب الأهلية ووقائعها وانهيارات العقد الأخير من القرن ونتائجها، أو تعبيرًا عن اختلاف مع قيادات الحزب المتعاقبة حول مواقف وسياسات أو حول قرارات تنظيمية اتخذتها تلك القيادات في ظروف ومناسبات وأزمنة مختلفة. وجميع هؤلاء يعتبرون أنفسهم شيوعيين. وفي حين أنَّ كثيرين منهم لا يقفلون الباب أمام إمكان عودتهم للانتظام في صفوف الحزب، إذا ما رأوا أنَّ ظروفهم وظروف الحزب تسمح لهم بذلك، أو إذا ما استطاع الحزب أن يقنعهم بذلك سياسيًا وتنظيميًا، فإنَّ عددًا غير قليل منهم قد أقفل الباب دون ذلك الاحتمال، بفعل مرور الزمن وفضَّلوا الاستمرار في الانتماء إلى الشيوعية خارج أي التزام.

إلى هؤلاء جميعًا نوجِّه رسالتنا هذه. لكننا نخص من بينهم أجيال الشباب من كل الأعمار. ذلك أنَّنا، في ما نريد قوله، إنَّما نتطلَّع إلى المستقبل الذي هو للأجيال الشابة أكثر من سواها، المستقبل الذي يفترض بتلك الأجيال أن تصنعه لنفسها ولشعبها ولبلدها، وتحدِّد له خطوطه واتجاهاته وترسم فيه أحلامها للتغيير. إلَّا أنَّ التركيز على الشباب لا يعني التقليل من شأن الأجيال الأخرى، جيلنا نحن الذين تقدَّم بنا العمر، والأجيال التي أتت بعدنا والتي تدفعها الأيام في اتجاه أعمارنا عامًا إثر عام. كلا قطعًا. فالتجربة الغنيَّة التي اكتسبتها وكدَّستها هذه الأجيال القديمة والمخضرمة جميعها ومنها جيلنا في النضال على جبهاته كلها السياسية منها والاجتماعية والثقافية، بما فيها الجبهة التي كان الصراع فيها عنيفًا، مسلحًا وغير مسلح، وكان باهظ الكلفة روحيًا وماديًا، هذه الأجيال تشكِّل بالتأكيد، أيًا كان مستوى إسهامها عند فرد وآخر أو عند مجموعة وأخرى، تراثًا لحزبنا تنبغي الإفادة منه إلى الحدود القصوى،

تمثُّلًا لجوانب منه، إذا أمكن، أو على الأقل استخلاصًا عقلانيًا لدروس معيَّنة منه.

وغني عن القول والتأكيد بأنَّ ما يدفعنا لتوجيه هذه الرسالة إلى الشيوعيين هو الوضع الراهن الخطير الذي يمر فيه الحزب الشيوعي، حزبنا، ونمر فيه نحن جميعنا بالضرورة أفرادًا ومنظَّمات ومؤسسات ومجموعات بفعل هذا الوضع في الحزب. وهو وضع ترك ويترك تأثيره السلبي على مجمل حركة اليسار، بل على مجمل الحركة الديمقراطية في البلاد بتنويعاتها وبمكوّناتها المختلفة. وفي تقديرنا فإنَّ ما يعاني منه حزبنا اليوم في حياته الداخلية وفي الصراعات بين الاتجاهات والمواقع فيه وفي أوضاعه السياسية، هو أخطر بكثير مما يمكن أن يتصوره الشيوعيون، جميع الشيوعيين، بوعي منهم أو من دون وعي، بإدراكٍ منهم للنتائج المدمرة لهذا الوضع أو من دون إدراك. وهذه المخاطر بالذات التي نراها نحن الإثنين بحكم كوننا خارج الصراعات القائمة وخارج محاورها، هي التي تدفعنا إلى قول ما سنقوله في رسالتنا هذه الموجَّهة إلى كل الشيوعيين، والتي نريدها أن تصل أيضًا إلى أصدقاء الحزب وإلى أهل اليسار وإلى جميع الديمقراطيين من مختلف الاتجاهات. وهم جميعهم، كما نعتقد، معنيون بما يجري في الحزب الشيوعي، ومعنيون بالمساهمة في العمل مع إخوانهم الشيوعيين لوضع حدٍّ له ولتدارك الأخطار الناجمة عنه وعن استمراره. وكوننا خارج الصراعات وخارج محاورها لا يعني أننا حياديون، أي أننا خارج دائرة النقاش والجدل في المواضيع الفكرية والسياسية التي تشغل العالم كله من أهل اليسار وأهل اليمين على حد سواء، بما في ذلك في بلدنا لبنان وفي سائر البلدان العربية. كلا فلكل منّا، نحن الاثنين، آراؤه ووجهات نظره في هذه القضايا. وقد عرضناها، وسنظل نعرضها حيث تتوفر شروط ذلك وإمكاناته وإمكاناتنا، سواء في وسائل الإعلام اللبنانية والعربية أم في الندوات والمؤتمرات، أم في اللقاءات الحوارية على اختلافها واختلاف القوى التي تنظِّمها في لبنان وفي الخارج. ولكل منّا في الوقت عينه رؤيته ووجهة نظره في الصيغة المعاصرة للحزب أي حزب، والصيغة المعاصرة للحزب الشيوعي تحديدًا ولسائر الأحزاب التي تنادي بالتغيير وتحمل مشروعها الخاص بها الهادف إلى إحداث هذا التغيير في الشروط التاريخية لبلداننا، ووفق الحاجات الموضوعية لتقدّمها في كل المجالات ووفق شروط العصر وتحولاته.

نريد أن نقول أولًا، بأنَّ أي عمل يمكن أن يؤدي إلى تدمير حزب مثل الحزب الشيوعي اللبناني، سواء تمَّ ذلك بوعي أم من دون وعي، في صورة مباشرة أو في صورة غير مباشرة، إنّما هو عمل أقل ما يوصف به أنَّه عمل غير مسؤول بكل المعاني. فالحزب الشيوعي اللبناني هو أقدم الأحزاب اللبنانية وأعرقها. وهو أول حزب حمل أفكارًا راديكالية للتغيير، متجاوزًا بذلك ولو بقدر غير قليل من الطوباوية الواقع الموضوعي في لبنان والشروط التاريخية لتطوره. وكان رائدًا بجرأته في اقتحام صعوبات الزمن الأول والأزمنة اللاحقة. وكان في ريادته تلك، مصيبًا أحيانًا ومرتكبًا أحيانًا أخرى من الأخطاء ما كان يزيد في صعوبة المهمة التاريخية التي وضعها أمامه. ويحفل تاريخه الطويل بالمعارك القاسية والشجاعة والمكلفة التي خاضها دفاعًا عن قضايا الشعب والوطن. وقدَّم قياديّوه وأعضاؤه، في تلك المعارك، الغالي

من التضحيات من دون تردد ومن دون حساب، استشهادًا في السجون تحت التعذيب واستشهادًا في التظاهرات الشعبية دفاعًا عن مصالح الناس وعن مطالب الفقراء، واستشهادًا على جبهات القتال بالسلاح وبالموقف وبالفكر وبالقلم دفاعًا عن الوطن وعن حريته وسيادته واستقلاله. ولا نعتقد أنَّ بمقدور أحد في لبنان وخارج حدوده يستطيع أن ينسى، أو يتجاهل، أسماء الروّاد الأوائل من قادة الحزب الشيوعي اللبناني وفي مقدّمهم فؤاد الشمالي في زمن التأسيس، والشهيد فرج الله الحلو ونقولا شاوي في زمني نهضة معروفين في تاريخ الحزب في الأربعينات والستينات من القرن الماضي. وهي أسماء مضيئة في تاريخ لبنان الحديث وفي تاريخ الحزب الشيوعي على امتداد تلك الأعوام الطويلة التي ستبلغ في العام القادم الثمانين بالتمام والكمال. ولا نعتقد أنَّ في مقدور أحد في لبنان وخارج حدوده أن ينسى أو يتجاهل بطولات الشيوعيين الذين قدموا في عام 1982 من كل لبنان، مناطق وطوائف ومذاهب ومدنًا وقرى، إلى مقاومة الاحتلال الإسرائيلي بدءًا من بيروت العاصمة وصولًا إلى سفوح جبل الشيخ وإلى بقية المدن والقرى التي اجتاحها الغزاة الصهاينة. وكان هؤلاء الأبطال يحقّقون في كفاحهم الشجاع الانتصار تلو الانتصار على هذا العدو الغازي في القتال والاستشهاد والأسر، إلى جانب إخوانهم في أحزاب الحركة الوطنية محتضنين من أبناء شعبنا الطيِّبين الصامدين في أرضهم. وكانوا، بأعمالهم البطولية تلك، يهيئون الشروط الأساسية للانتصار على الغزاة وتحرير أرضنا في عملية هي الأولى من نوعها في التاريخ العربي الحديث، ساهم في إنجازها شعبنا كلّه بالقتال وبسلاح الموقف، رغم كل الصعوبات والمعوقات من كل نوع، مدعومًا من أشقّائه وأصدقائه كلهم. وكان هؤلاء الشيوعيون، بكفاحهم ذاك، يتابعون بثبات ويكمِّلون بأمانة المشوار الذي بدأه حزبهم منذ التأسيس تحت شعار: وطن حر، وشعب سعيد.

كلا، أيها الرفاق الشيوعيون. إنَّ حزبًا مثل حزبكم الشيوعي صاحب هذا التاريخ المجيد لا يحق لأحدٍ أيًا كان من داخله ومن خارجه أن يتحكَّم بمصيره وأن ينتزعه من تاريخه المجيد هذا، وأن يفرِّط به وأن يفتِّته وأن يحوِّله أو يحاول تحويله إلى متراسٍ هنا أو إلى أداة هناك، أو إلى وسيلة ترضي أهواء ونزعات لا يتصل أي منها بأي من الأهداف التي وضعها المؤسِّسون الأوائل نصب أعينهم، حين أقدموا على وضع اللُّبنات الأولى لحزب العمال والفلاحين والأجراء والمثقفين، حزب الشعب والوطن. ولسنا في ما نسوقه من إشارات إلى تلك الأخطار بصدد توجيه الاتهام لأي كان من الرفاق المختلفين في مواقعهم المختلفة. إنَّما أردنا فقط أن نحذِّر الشيوعيين، كل الشيوعيين، من احتمال الانزلاق إلى مثل تلك الأخطار التي ما إن يبدأ صراع الأفكار والآراء والاتجاهات في أي حزب من دون ضوابط، بما في ذلك في حزبنا (وتاريخ الأحزاب ومنها الأحزاب الشيوعية حافل بذلك) حتى تغيب المعايير من دون وعي وإدراك ومن دون قصد، وتحل محلها معايير هجينة تتجاوز المثل والقيم والأهداف التي ترتبط بالحزب وبالشيوعية إلى ما يشبه نقائضها. ويبدأ عندئذٍ التدمير الفعلي للحزب. وتحصل الكارثة التي لا يتم الشعور بها إلاّ عندما تقع. فيحصل الندم. ولات ساعة مندم!

كلا، أيها الشيوعيون اللبنانيون أينما كنتم في أي موقع وفي أي اتجاه وفي أي "معسكر"، وأيَّة كانت مسؤولياتكم، ليس مسموحًا لكم أن تدعوا حزبكم يذهب في هذا الاتجاه الخطير، في هذا المنزلق الكارثي. إنَّ واجبكم جميعًا ومسؤوليتكم يتطلبان منكم الحفاظ على الحزب وصيانته من كل الأخطار التي نخشى أن تؤدي به إلى الابتعاد، ولو جزئيًا، عن أهدافه وعن مرجعيات قيمه وتقوده إذا ما حصل ذلك الابتعاد إلى ما يشبه التدمير الذاتي. إلَّا أنَّ صيانته من خطر الوقوع في مثل ذلك المصير مرهون بموقفكم وبمساهمتكم في منع الصراع على حاضر الحزب ومستقبله أن يقود إلى ذلك. وإذ نحذِّر من الوقوع في مثل ذلك المنزلق الكارثي فليس لأننا ضد صراع الأفكار والآراء والاتجاهات. فمثل هذا الصراع طبيعي. وله في الحياة شروطه الموضوعية. بل إنَّنا نجزم بأنَّ هذا الصراع هو سنَّة من سنن الحياة، التي تؤكِّد أنَّ حياة البشر قائمة أصلًا على التنوُّع والتعدُّد والاختلاف، ليس بسبب اختلاف المصالح وحسب بل حتى في داخل الموقع الذي تتفق وتلتقي فيه المصالح والأهداف. والحزب الشيوعي كتجمع بشري هو مثل سائر التجمعات البشرية مكان يلتقي فيه طوعًا واختيارًا أفراد أحرار على قاعدة مصالح وأهداف ومُثُل وقيم مشتركة من دون أن يلغي المشترك الذي يوحِّدهم حقّهم الطبيعي في التعبير عن اختلافهم وتنوُّعهم وتعدُّدهم في فهم الأشياء وفي النظرة إليها وفي المشاعر وفي شتى أشكال التعبير عن ذواتهم الحرة. إلَّا أنَّنا، ونحن نؤكِّد بأنَّ الاختلاف والصراع داخل الحزب هما تعبير طبيعي عن حاجة موضوعية، فإننا نعتقد بالمقابل أنَّ هذين الاختلاف والصراع ينبغي أن يتمّا بحرية ضمن الشرعية الحزبية، وأن تنظمهما في إطار وحدة الحزب قوانين ديمقراطية حقيقية. إذ لا حرية من دون قانون. لكن القانون ذاته، إذا لم يخضع على الدوام للتغيير والتدقيق والترشيد، يصبح عائقًا أمام اكتمال الحرية، بدلًا من أن يكون ناظمًا ومرشدًا لها. بكلام آخر، إنَّ الشرعية التي نقصدها هنا إنَّما تعني بالتحديد أن يكون الحزب في صيغته المعاصرة قادرًا على تأمين شروط ذلك التعدد ضمن الوحدة، على قاعدة نظام وانتظام يؤمِّنان بالترابط والتكامل بينهما الحاجة إلى التعدد والحاجة إلى الوحدة في آنٍ معًا.

غير أنَّنا، إذ نشير إلى كل تلك الأمور، نريد أن تعرفوا أيها الرفاق، أنَّ الأزمة التي يجتازها حزبكم اليوم هي أزمة قديمة. وقد بدأت تطل برأسها منذ الأعوام الأخيرة للحرب الأهلية. وتعود هذه الأزمة في أساس بروزها إلى أمرين بالغي الدلالة في علاقة كل منهما بالآخر وفي التمايز والاختلاف بينهما في الشكل وفي الأساس وفي الظروف. الأمر الأول تمثَّل في أنَّ الحزب كان قد بدأ يدرك، منذ منتصف الثمانينات وهو في غمرة تأسيسه لجبهة المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الإسرائيلي مع عدد من حلفائه من أهل اليسار، وفي غمرة انخراطه في عملياتها النوعية الجريئة، أنَّ الحرب الأهلية قد تحوَّلت إلى حرب عبثية – وهي كانت في الواقع قد تحولت قبل ذلك في هذا الاتجاه – وإنها أصبحت، باستمرارها في ذلك المنحى، عائقًا حقيقيًا أمام خوض نضال حقيقي لتحرير الأرض من الاحتلال. أي أنها أصبحت، بنظر الحزب، عائقًا حقيقيًا أمام إمكانية نشوء وطنية جديدة توحِّد اللبنانيين في النضال ضد العدو الخارجي الذي يغزو بلادنا ويحتلّ أرضنا وتوحدهم على قاعدة هذا النضال في الانتماء إلى وطن

حقيقي، بديلًا من الوطن الذي كان في نظامه السابق شبه وطن. إذ كان أبناؤه في انتمائهم الأساسي إلى طوائفهم ومذاهبهم وحتى إلى عقائدهم الحزبية، يحتمون ضد بعضهم البعض بالقوى الخارجية من كل الأنواع والأجناس. وما إن انتهت الحرب حتى تبيَّنت كل تلك الوقائع التي كان غيابها، أو غياب عناصر أساسية منها عنا نحن قيادة الحزب منذ بدء الحرب الأهلية، قد خلق لنا "أوهامًا ثورية للتغيير" سرعان ما بددتها الصيغة التي انتهت فيها الحرب على يد القوى غير اللبنانية في إطار اتفاق الطائف. وما أدراك ما اتفاق الطائف. وما أدراك ما آل إليه ذلك الاتفاق في الممارسة وفي التطبيق تشويهًا لبنوده وانسلاخًا كاملًا عن "روحه"، وتدميرًا منظمًا للبلاد ولمؤسساتها وتجويعًا وإفقارًا للأكثرية الساحقة من أبنائها. ذلك كان الأمر الأول، الذي شكَّل البدايات الأولى في بروز الأزمة في الحزب. أما الأمر الثاني فتمثَّل بالأزمة في الحركة الشيوعية العربية والعالمية، والأزمة في بناء الاشتراكية. وكانت كلتا الأزمتان قد بلغتا ذروةً تفاقمهما. ولم تكن البرسترويكا السوفياتية في واقع الأمر إلَّا شكلًا للتعبير عن تلك الأزمة في وجهيها أكثر مما كانت تعبيرًا عن عملية حقيقية للعبور من الأزمة إلى الإصلاح، سواء في الاتحاد السوفياتي خصوصًا أم في مجمل الحركة الشيوعية العالمية على وجه العموم. إذ سرعان ما انهار البنيان، عندما بلغت تلك الأزمة حدها الأخير وزال الاتحاد السوفياتي من الوجود مخلِّفًا في الفكر التغييري وفي السياسة الدولية وفي الوقائع كلها نتائج بحجم الزلازل التاريخية الكبرى. وكان الانهيار ذاته تعبيرًا حقيقيًا ودامغًا عن عجز الحركة الاشتراكية في كل من بلدان التجربة، حيث كانت النظرية على يد حامليها موضوعة في ميدان الاختبار على أرض الواقع، وفي البلدان الأخرى المتقدِّمة والمتخلِّفة حيث كانت الأحزاب الشيوعية والاشتراكية والأحزاب نصف الاشتراكية عاجزة وهي تناضل من أجل الحرية والتقدم والعدالة الاجتماعية عن تقديم حلول واقعية لأوضاع بلدانها، وعاجزة في الوقت عينه عن مواكبة التحولات التي كان يشهدها العالم في فترة انتقاله موضوعيًا من عصرٍ شاخ فيه الكثير من الأفكار والمفاهيم والمعارف والعلاقات إلى عصر جديد مختلف بالكامل مفتوح على احتمالات شتى متناقضة في وجهتها وفي اتجاهاتها.

هذان الأمران الحدثان هما اللذان وضعانا نحن في الحزب الشيوعي اللبناني وجهًا لوجه أمام وقائع كبيرة مذهلة لم نكن مهيَّئين لها. وكانت أكبر منا بكلِّ المقاييس. وعلينا أن نقر بذلك من دون مكابرة. وإذ كنا نعلن في ذلك الحين ونكرِّر الإعلان في مواقفنا أننا لن نقع في ما وقع فيه سوانا ولن ننهار مع انهيار الاتحاد السوفياتي، فقد كنّا بذلك كمن يقاوم المستحيل، أو هكذا تبيَّن لنا في نهاية المطاف.

تذكَّروا أيها الرفاق كيف أننا عقدنا المؤتمر السادس للحزب في ربيع عام 1992، أي في تلك الفترة العصيبة من تاريخ لبنان والعالم التي أعقبت انتهاء الحرب الأهلية على قاعدة اتفاق الطائف، وتمَّ فيها الانتقال إلى السلم الأهلي في أسوأ الصيغ ضد بنود اتفاق الطائف ذاته وبعكس "روحه" واتجاهاته. وهي الفترة التي كان قد زال فيها الاتحاد السوفياتي من الوجود، وانهارت بزواله التجربة الأولى للاشتراكية في التاريخ بعد ثلاثة أرباع القرن من قيامها. وكان انعقاد ذلك المؤتمر بعد ثلاثة أعوام عاصفة من

التحضير له – في قراءاتنا الراهنة لقراراته – محاولة فوقية إرادوية في الفكر السياسي للحزب. إذ كانت، كما بدا لنا بعد ذلك، خارج الشـــروط التاريخية التي لم تكن قد نضـــجت بعد للانتقال بالحزب من واقعه ذاك إلى العصـر الجديد، مفاهيم وأفكارًا وسـياسـات وسـلوكيات. وهي المحاولة التي عبَّرت عنها الوثيقة التي أقرَّها المؤتمر. وهي وثيقة لم يقرأها الشـــيوعيون. لذلك لم يعملوا على تعميمها. إذ كانت، في ما قدمته من بدايات مراجعة نقدية جادّة في الفكر وفي الســـياســـة وفي التنظيم وفي الموقف من الحرب الأهلية، محاولة للخروج من الأزمة أكثر تقدمًا من الواقع الذي كان ســـائدًا في الحزب آنذاك. ويذكِّرنا مصير وثيقة المؤتمر السادس بمصير الوثيقة التي كنا قد أعددناها نحن الاثنين بتكليف من قيادة الحزب في صـيف عام 1988، احتفالًا بمرور عشـرين عامًا على انعقاد المؤتمر الثاني للحزب، مؤتمر التغيير النوعي الأول في تاريخه. وهي وثيقة حاولنا فيها تقديم تصـورنا الجديد للحزب، فكرًا وخططًا سـياسـية وصـيغة تنظيمية للحقبة القادمة. وقد رُفضـت تلك الوثيقة من قبل الهيئات القيادية في الحزب. ولم نبادر نحن الاثنين إلى نشـرها. وكنّا مخطئين في ذلك. ولم يكن يمنعنا من نشـرها إلَّا انضـباط حزبي غير مطلوب وغير مبرَّر.

إنَّ كل ما نشـير إليه من وقائع وتقديرات يؤكِّد أنَّ الأزمة في الحزب كانت عميقة. لذلك اسـتمرت تتفاقم من دون توقف، ومن دون أن نتمكَّن جميعنا من تجاوزها، في قيادة الحزب في كل المســـتويات، وفي صـفوف الحزب كوادر وأعضـاء. وهي مسـؤولية لا يحق لأحدٍ منّا، أيًا كان موقعه اليوم وبالأمس وأية كانت ادعاءات اسـتشـرافه للمسـتقبل، أن يضـع نفسـه خارجها. فكلنا، من دون اسـتثناء، نتحمَّل المسـؤولية جميعنا في عدم إخراج حزبنا من الأزمة التي تسـتمر منذ خمسـة عشـر عامًا، وتسـهم في إضعافه وفي تقليص دوره إلى حدود التهميش! وطبيعي ألَّا تتساوى المسؤولية بين شخص وآخر أو بين هيئة وأخرى في كل ما حصـل خلال تلك الأعوام. والمؤسـف والمؤلم أنَّنا، بدلًا من أن ننخرط في البحث عميقًا في ما كان يجري حولنا وبعيدًا عنّا من تحولات معظمها سلبي ويتم في الاتجاه المعاكس لأحلامنا ومشاعرنا وأهدافنا، غرقنا في محاكمات بعضنا لبعض. وتحوَّلنا من دون أن ندري إلى أين ومن دون أن نرى ذلك الواقع الذي كان بلدنا يغرق ويغرقنا فيه. وصـــرنا، مثل ســـوانا في أحزاب وفي بلدانٍ أخرى، نحصـــد النتائج الســـلبية للعاصـــفة التي هبَّت على العالم بعد انهيار الاتحاد الســـوفياتي، وخلفت ذلك الاضـطراب الكبير وتلك الفوضـى العارمة وذلك التوحش الذي بات يحمل اسـم العولمة الرأسـمالية التي تنفرد الولايات المتحدة الأميركية باســـمها بقيادة العالم إلى الهاوية، تدميرًا للبشـــر وللطبيعة وللمحيط الخارجي للكوكب، سـواء بالحروب أم بالجرائم المنظَّمة أم بسـواها جميعها مما تحفل به ترسـانة التوحش من وسائل وأدوات تدمير، تستخدم الاكتشافات العلمية المذهلة في صنعها وتطويرها بدلًا من أن تستخدم في تأمين الحرية والسعادة للبشر.

من السـهل أن ننخرط الآن في تحديد المسـؤوليات – وتحديد أسـماء أصـحابها– عما وصـلت إليه الأمور في الحزب في ظل اســـتمرار الأزمة وتفاقمها. لكن الواقع هو أنّنا جميعًا من دون اســـتثناء

مسؤولون. إلَّا أنَّ القيادة الحالية للحزب تتحمَّل المسؤولية أكثر من سواها، باعتبارها هي القيادة المنتخبة شرعيًا في المؤتمر والمؤتمنة على الحزب فهي لم تستطع في الممارسة تأمين إدارة شؤون الحزب وإدارة الأزمة في شـــكلٍ متوازن بأفق الوصـــول إلى حل يؤمِّن وحدة الحزب ويخرجه من أزمته. أمَّا الرفاق المعترضـون على عمل قيادة الحزب وسلوكها (الإصـلاح والديمقراطية) فيتحمّلون المسؤولية، أولًا لأنَّهم استقالوا من القيادة وتخلُّوا عن مسؤولياتهم فيها، ثم لأنَّهم وضـعوا أنفسـهم في موقع آخر، في ما يشـبه المتراس ضد القيادة وضد طريقتها في إدارة عمل الحزب وفي إدارة الأزمة المتفاقمة فيه. ويتحمَّل الرفاق الآخرون هنا وهناك، بمن فيهم نحن الاثنين، المســـؤولية في عدم بذل جهود كافية للقيام بمبادرات في صيغٍ واقعيةٍ كلّ من موقعه ووفق إمكاناته لإعادة الأمور إلى نصابها من أجل وقف الصراع في أشكاله وفي اتجاهاته السلبية وتشجيع الحوار الإيجابي البنَّاء. الأمر الذي جعل الصراع يتفاقم ويتخذٍ شكل فعل ورد فعل ثم فعل ورد فعل، وهلم جرا. وفي مثل هكذا ظروف تتعمَّق الأزمة بدل أن تتوفَّر الشروط لحلِّها. ويتحول الصـــراع أو بعض منه على الأقل أو في جانب من جوانبه، أراد أصـــحابه أم لم يريدوا – رغم المواقف المعلنة من هنا وهناك بعكس ذلك – من صراع سياسي وفكري وصراع حول الصيغة المطلوبة بالممارسة، إلى صراع مجموعات وصراع أشخاص قاد بعضًا منهم أخيرًا إلى اللجوء إلى القضاء.

كلا أيها الشـيوعيون، إنَّ ما يحصـل اليوم في الحزب وحول الحزب، لم يعد اسـتمراره مسـموحًا. والمسؤولية، مرة ثانية، يتحملها الجميع من دون استثناء بمعزل عن تحديد نسبة الخطأ هنا أو هناك. إنَّ المطلوب من قيادة الحزب المنتخبة شـرعيًا في المؤتمر الثامن أن تمارس مسـؤوليتها بصـفتها تلك التي تجعلها مؤتمنة على مصـير الحزب عشـية انعقاد المؤتمر التاسـع الذي حان موعد انعقاده. ومسـؤولية القيادة تتمثَّل أساسًا في بذل كل ما يساعد على توفير الشروط الأفضل والأسلم لانعقاد المؤتمر. وهي مسـؤولية تعارضـت وتتعارض مع الطريقة التي تواجه بها القيادة أزمة في مسـتوى الأزمة القائمة. وكان تنظيم انتخابات للهيئات الوسـطية عشـية المؤتمر الوطني النموذج الفادح للخطأ. وقد نبَّهنا نحن الاثنين إلى أخطارها. إذ إنَّ هذه الانتخابات لم تكن مبرَّرة قبل انعقاد المؤتمر الذي يفترض به أن يقرر أمورًا عديدة تتصل بالسياسة وبأشكال التنظيم، بما في ذلك صيغة الهيئات الوسطية ودورها وموقعها في عمل الحزب اللاّحق. فضـلًا عن أنَّ انتخاب تلك الهيئات إنما ينبغي أن يتم على قاعدة نقاش سـياسـي حول برنامج المنظمة الحزبية الذي يفترض به أن يستوحي أسسه من الخطة السياسية التي يقررها المؤتمر. لذلك فقد أدّى تنظيم هذه الانتخابات، إلى جانب ما أشرنا إليه من خطأ مبدئي في تنظيمها في هذه الفترة بالذات، أي عشـية انعقاد المؤتمر الوطني، إلى تفاقم الأزمة وإلى تفاقم الصـراع داخل الحزب بين كوادره وأعضائه. وأدّى ذلك أيضًا إلى تعذُّر إمكان عقد المؤتمر في شروط صحية. إلَّا أنَّ الرفاق في المعارضة (الإصـــلاح والديمقراطية) الذين أعربوا عن اعتراضـــهم على تلك الانتخابات واجهوا خطأ القيادة بخطأ الاستنكاف عن المشاركة في تلك الانتخابات. إذ قاطعوها وقاطعوا نتائجها بمواقف سياسية عنيفة، بدل أن يتجاوزوا الخطأ بالاكتفاء بالاعتراض عليه والعمل في الاتجاه الذي يخفف من أجواء الاحتقان

بانتظار التوصل على قاعدة الحوار والضغط الإيجابي البنّاء، إلى اتفاق يؤمّن انعقاد المؤتمر التاسع في أفضل الشروط، وترك المؤتمر ذاته يقرّر مستقبل الحزب في كلِّ الشؤون الفكرية والسياسية والتنظيمية. وواضح أنَّ انعقاد المؤتمر بات يواجه صعوبة كبرى في ظل الأجواء السائدة، من أفعال وردود أفعال متواصلة وهلم جرا. إلَّا أنَّ الطريق إلى المؤتمر ليس مقفلًا، ولا ينبغي أن يعمل أيّ كان على إقفاله. بل إنَّ ضرورة انعقاده تصبح مهمة نضالية بالنسبة لجميع الشيوعيين.

فما العمل للوصول إلى انعقاد المؤتمر، أي إلى المرحلة التي يلتقي فيها الشيوعيون من خلال مندوبيهم في المؤتمر ويقرّرون فيه على قاعدة الوحدة مستقبل حزبهم؟

نود، في الجواب عن السؤال، أن نبدأ بتذكير جميع الشيوعيين في كل مواقعهم التنظيمية والسياسية بأنَّ الفترة التي تتفاقم فيها أزمة حزبهم وتبلغ مرحلة الخطر الحقيقي على مستقبله هي من أكثر ما واجه ويواجه بلدنا لبنان والعالم العربي والعالم من أخطار على مصير كل بلد وعلى مصير العالم برمّته. وليس في مقدور أحد أن يتصور ما ستحدثه الحرب الأميركية على العراق من نتائج. وهي حرب توشك أن تقع من دون أن يتمكن العالم حكومات وشعوبًا وأممًا متحدة من وقف اندفاعها وردع قادة البيت الأبيض عن القيام بها. ولا نعتقد أنَّ شيوعيًا واحدًا لا يعرف أنَّ بلداننا العربية المحكومة بأنظمة استبداد تستمر منذ عقود محدثة فيها قدرًا كبيرًا من التخلُّف والخراب، وأنَّ شعوبنا المقهورة والمقموعة والمجوعة هي جميعها اليوم في أقصى حالات العجز عن مواجهة مفاعيل تلك الحرب قبل أن تقع وبعد أن تقع. هذا فضلًا عن العجز الفادح وفقدان القدرة بالكامل عند الجميع حكومات وشعوبًا عن دعم الكفاح البطولي للشعب الفلسطيني في الدفاع عن حقوقه المشروعة في أرضه ووطنه وفي الدفاع عن حياته اليومية في مواجهة الوحشية الإسرائيلية المتمادية مدعومة من الولايات المتحدة الأميركية. ولا نعتقد أنَّ أحدًا منّا جميعنا لا يعرف أنَّ جماهير بلداننا، عمالًا وأجراء وكادحين وشبابًا ومثقفين، التي تدفع من حياتها وحقوقها ومستقبلها ثمن الغياب الفادح للسياسة وللبرامج السياسية للتغيير، قد بدأت منذ سنوات عديدة تفقد ثقتها بالنضال وتتكفئ عن الانخراط في الأحزاب، بما في ذلك أحزاب التغيير ومنها الأحزاب الشيوعية الغارقة في أزماتها والمنشغلة عن الاهتمام الحقيقي بمصالح تلك الفئات بالصراعات التي تشلّها وتشلّ قدراتها على العمل وفق ما تشير إليه مرجعياتها الفكرية والمثل والأهداف التي حملتها، أي تلك الأحزاب، وبرَّرت لها وجودها واستمرارها.

إنَّ كل ذلك يحصل – يا للمفارقة – في هذه الفترة بالذات التي تصبح فيها الحاجة أكثر من أي وقت مضى إلى دور الأحزاب عمومًا وأحزاب التغيير خصوصًا وفي المقدمة منها الأحزاب الشيوعية، الدور الذي لا بديل منه. فهل يعقل أن يستمر حزبنا مشغولًا بالخلاف بين أعضائه وكوادره وقياداته عاجزًا عن الخروج من الأزمة إلى الحرية في هذه الفترة الحرجة من حياتنا وحياة البشرية؟

إننا، أمام هذه الأخطار القائمة والداهمة وأمام هذه الأوضاع البائسة التي تعيش فيها بلداننا وتدفع ثمنها شعوبنا، لا نرى خيارًا لتجاوز الأزمة في الحزب الشيوعي اللبناني، حزبنا الذي أعطيناه وما زلنا

نعطيه عمرنا كله، لا خيار سوى الاتفاق على الانخراط في العمل لتوفير أفضل الشروط لعقد المؤتمر التاسع في أبسط طريقة، وترك المندوبين فيه يقررون مستقبله في السياسة وفي الخطط العملية الملموسة وفي الصيغة الجديدة التي تتوافق مع شروط العصر للتعاقد بين أعضائه.

ولا شك أنَّ الحرص على وحدة الحزب، الوحدة في التنوُّع والتعدُّد، من شأنه أن يوجد القواسم المشتركة بين الأطراف المختلفة في الحزب حول مستقبله وحول صيغته. وهو ما نعتقد ونأمل أن يحقِّقه المؤتمر التاسع. وهي مسألة يمكن الوصول إليها إذا ما قرَّر الرفاق جميعهم العمل في الاتجاه الذي يسهِّل عقد المؤتمر ويوحِّد الشيوعيين خلال انعقاده في البحث عن أفضل صيغة لاستمراره ولتفعيل دوره على قاعدة الأهداف العظيمة التي كانت في أساس نشوئه. بل نحن واثقون بأنَّ الشيوعيين سيصلون إلى ذلك الهدف متجاوزين كل صعوبات الحقبة الماضية، يشدّهم إلى ذلك إحساسهم بالمسؤولية المشتركة في هذه الظروف الاستثنائية التي تواجه لبنان والمنطقة والعالم.

ونود في الختام أن نذكِّر الشيوعيين بأنَّ المؤتمر الثامن كان قد اتخذ قرارًا بالعمل على توحيد اليسار في صيغة من الصيغ والانطلاق، على قاعدة هذا التوجُّه، في عملية تجميع واسعة للقوى الديمقراطية بهدف توحيدها في النضال لإخراج بلدنا لبنان من المستنقع الذي وضعته وتضعه فيه القوى التي هيمنت منذ انتهاء الحرب الأهلية على مواقع القرار وعلى مقدرات البلاد، فأغرقتنا جميعنا دولة ومؤسسات وقوانين ومجتمعًا في أكبر وأعقد الأزمات التي لم يعرف لبنان مثيلًا لها في تاريخه الحديث. فهل تعتقدون أيها الرفاق أنَّ حزبنا في وضعه الحالي قادر على توحيد قوى اليسار والإسهام في تجميع القوى الديمقراطية لتحقيق تلك الأهداف وهو في حالة العجز عن توحيد صفوفه؟

فإلى العمل أيها الشيوعيون كل من موقعه لإخراج الحزب من هذه الأزمة التي تهدِّده إذا هي استمرَّت بالوقوع في الكارثة. لنعمل معًا، قبل وقوع الكارثة، من أجل تجنيب حزبنا الوقوع فيها. لنعمل معًا من أجل أن يستعيد حزبنا وحدته وعافيته ويستعيد دوره التاريخي في النضال لتحقيق شعار المؤسِّسين: وطن حر وشعب سعيد.

كريم مروة

جورج البطل

بيروت في 2003/3/11